شعر الزهد عند إبن خفاجة الأندلسي

د.أحمد سمير علي مرزوق (*)

المستخلص

تناولت هذه الدراسة الموسومة بـ " شعر الزهد عند ابن خفاجة الأندلسي " أسباب ظهور الزهد على المستوى الإنساني، ثم ظهوره وتطوره في الأندلس، ثم بيان عصر الشاعر وبيان ما به من أحداث، ثم تناولت الدراسة نشأته وحياته، والوقوف على بواعث الزهد عند ابن خفاجة الذاتية، والاجتماعية في شعره، وقدمت تحليلًا لأبرز مظاهر الزهد، معتمدة على المنهج التاريخي والاجتماعي، مع الاستعانة بالمنهج النفسي، وذلك لإلقاء الضوء على خصوصية شعر الزهد عند ابن خفاجة وخصائصه الفنية.

الكلمات المفتاحية

الزهد، شعر الزهد، ابن خفاجة، الأندلس، الشعر الأندلسي، عصر ملوك الطوائف، عصر المرابطين

This study titled "The Poetry of Asceticism of Ibn Khafajah Al-Andalusi" addresses the reasons behind the emergence of asceticism on the human level, followed by its appearance and development in Andalusia. The study then examines the era of the poet, highlighting its significant events. Furthermore, the study delves into Ibn Khafaja's upbringing and life, examining the personal and societal factors that influenced his ascetic tendencies within his poetry. The study provids an analysis of the prominent facets of asceticism, employing descriptive and psychological approaches. This analysis aims to shed light on the uniqueness of ascetic poetry in the works of Ibn Khafaja, as well as its artistic characteristics.

* – مدرس بقسم اللغة العربية ، كلية اللغات – جامعة اكتوبر للعلوم الحديثة والآداب

Keywords

Asceticism-The poetry of asceticism -Ibn Khafaja - Andalusia-Andalusian poetry -The era of the Taifa kings -the Almoravid era.

مقدمة

تسعى هذه الدراسة لاستكشاف خصوصية تجربة ابن خفاجة الزهدية اعتمادًا على المنهج التاريخي والاجتماعي، مع الاستعانة بالمنهج النفسي، وذلك من أجل تحقيق عدة أهداف أبرزها:

١- التعريف بالزهد وبواعثه.

٢- إلقاء الضوء على تطور الزهد في الأندلس.

٣- الوقوف على بواعث الزهد عند ابن خفاجة.

٤- استنباط مظاهر الزهد عند ابن خفاجة التي تناولها في شعره.

٥- إلقاء الضوء على خصوصية شعر ابن خفاجة الزهدي.

ومن المفيد ذكر أن الدراسة اعتمدت في تناولها لديوان ابن خفاجة على تحقيق عبد الله سنده(دار المعرفة) وذلك لأن بها قصائد كاملة وأبيات متفرقة غير مثبتة في أي ديوان محقق آخر لابن خفاجة، ولكن هذا لا ينفي قيام الدارسة بالاستفادة كذلك من ديوان ابن خفاجة بتحقيق الدكتور السيد غازي نظرًا لوجود خطبة الديوان وبعض القصائد غير الموجودة في تحقيق سنده، لذا سيتم الإشارة لأي أبيات شعر أو اقتباس بتحقيق الدكتور غازي فقط.

الدراسات السابقة

تعددت الدراسات حول شعر ابن خفاجة وإن كان معظمها تناول غرض الطبيعة في شعره، لأنه أكثر غرض أبدع فيه قصائده، مثل دراسة الدكتور أشرف دعدور (شعر الطبيعة بين الصنوبري وابن خفاجة)، ودراسة الدكتور إحسان عباس (تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة)، ودراسة الدكتور فوزي عيسى (الشعر الأندلسي في عصر الموحدين)، ودراسة (الطبيعة في شعر ابن خفاجة الأندلسي) للدكتور بومدين كروم، وهناك دراسات تناولت شعر الزهد في فترة حياة ابن خفاجة وتناولوا شعره مع شعراء آخرين دون توقف أمام خصائص شعره الزهدي

وخصوصيته، مثل دراسة " شعر الزهد في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري" للدكتورة زينب بوصبيعة، ودراسة هيام يوسف المجدلاوي (الزهد في الشعر الأندلسي في القرنين الرابع والخامس الهجريين)، وهناك من توقف أمام بعض قصائد ابن خفاجة مثل دراسة (خطاب الموت في شعر ابن خفاجة الأندلسي قصيدة الجبل) لراشد عيسى ونضال الشمالي.

الزهد وبواعثه

الزهد هو نزعة إنسانية ممتدة عبر التاريخ عابرة لكل الديانات، ولكن يرتبط ظهوره بعدة أسباب، أولها الاستعداد النفسي للفرد، ولعله من أقوى المؤثرات التي تساهم في تحول الإنسان فكريًا إلى الزهد، فـ" الناس بحكم تكوينهم النفسي منهم الانبساطي المنفتح للحياة والمقدم عليها في نهم، ومنهم الانقباضي العازف عن الحياة الزاهد فيها المنطوي على نفسه، وكما يكون الخوف من المصير الإنساني من الموت دافعًا لبعض الناس في بعض الحالات على الإسراف في الانغماس في الحياة والانشغال بملذاتها فإنه يكون كذلك لدى بعضهم في بعض الحالات داعيًا إلى الزهد في الحياة والانصراف عن مغرياتها" [١] فعرف الإنسان الزهد منذ القدم، حيث عرفه الهنود والصينيون والفرس والعرب في الجاهلية، إذن فالزهد ظاهرة اجتماعية موجودة في كل المجتمعات والديانات، لأن" الرغبة في العزلة والانقطاع للعبادة والتأمل نزعة طبيعية كثيرًا ما تعتري الإنسان في ظروف معينة وهي لا ترتبط في أساسها بدين معين سماوي أو غير سماوي"[٢].

ولم يكن الزهد مرادفًا لكراهية الدنيا وعدم الالتفات لها في المعتقد الإسلامي، وإنما كان المقصود به "عدم حب الدنيا والتمسك بها، وفرق كبير بين المنزلتين، فالكراهية تدعو إلى التباعد والدفع والنفور، وعدم الحب، ليس فيه أكثر من عدم الاهتمام، وعدم الالتفات، والترقب وعدم التطلع"[٣] ويفرق ابن قدامة المقدسي بين الزهد والفقر، فالفقر هو انزواء الدنيا عن العبد أما الزهد فهو انزواء العبد عن الدنيا [٤]، يقول أبو العتاهية "الزهد ليس من مذاهب الملوك، ولا من مذاهب رواة الشعر، ولا طلاب الغريب، وهو مذهب أشفق الناس به الزهاد وأصحاب الحديث والفقهاء، وأصحاب الرياء والعامة، وأعجب الأشياء إليهم ما فهموه"[٥]، ولكن هذا لا ينفي تأثير الظروف السياسية والاجتماعية التي تحيط به عليه، فالزهد لا يمكن أن ينفصل عن البيئة التي نشأ بها وتفاعل بأحداثها ونشط ونما في ظلالها.

شعر الزهد في الأندلس

ولقد شغل شعر الزهد مساحة واسعة في أدبنا العربي عامة، وفي الأدب الأندلسي خاصة، واعتبر الدكتور أحمد هيكل أن شعر الزهد وضعت بذوره في عصر تأسيس الإمارة ونضج وتشكلت أصوله في عصر صراع الإمارة [٦]، حيث كان شعر الفتوحات والجهاد هو الذي برز مع بداية الفتح الإسلامي للأندلس والذي يمتد من عام ٩٢هـ حتى عام ١٣٨هـ ، وهو الذي عُرف بعصر الولاة، ثم قامت الدولة الأموية من عام ١٣٨هـ وسقطت عام ٤٢٢هـ.

وإذا تتبعنا التاريخ فسنجد أن عبد الرحمن الأوسط (ت ٢٣٨هـ) هو أول من اهتم بأمر الزهاد وشعر الزهد، حيث جمع في بلاطه العلماء والشعراء والأدباء والفقهاء[٧]، ولقد استمر الزهد باعتباره ظاهرة اجتماعية يعلو ويسمو حتى خرج من ظلاله التصوف الذي نشأ ونضج في أواخر القرن الثالث الهجري[٨]، وهكذا فعندما نتحدث عن شعر الزهد والتصوف قبل عصر الطوائف نجد ظاهرة تتمثل في كثرة الزهاد، الذين ألفوا حجمًا من المجتمع لا يمكن تجاهله[٩].

وحين قامت دولة ملوك الطوائف على أنقاض الخلافة الأموية بالأندلس عام ٤٢٢هـ وذلك بعد موت هشام المؤيد وتولي القاضي ابن عباد حكم إشبيلية، شاعت حياة اللهو والمجون والخلاعة في عصر ملوك الطوائف، حيث بدأت قبضة الحكام والفقهاء تخف فنزع المجتمع إلى الترف والرفاهية، حيث نزع ملوك الطوائف للتشبه بخلفاء بني أمية من حيث تشجيع الأدباء والشعراء وأرباب الغناء، وبدا واضحًا التنافس بين هؤلاء الملوك في مدى البذخ الكبير، مما ساعد على انتشار اللهو والمجون بين الطبقة الغنية والفقيرة على السواء، حيث " يفتر الوازع الديني في النفوس، ويتجرأ بعض الشعراء، فيقولون الشعر في الهزل والمجون، ويتخذون منه مادة سمرهم في مجالس الشراب والأدب والغناء"[١٠]، فكان من الطبيعي أن يشتد تيار الزهد في عصر ملوك الطوائف كرد فعل على تيار المجون والتحرر والعبث.

إبن خفاجة وشعره

وفي عصر ملوك الطوائف وُلد ونشأ وترعرع أديبنا أبو إسحاق إبراهيم بن أبو الفتح بن عبد الله بن خفاجة (٤٥١ – ٥٣٣هـ) في جزيرة شقر، وهي من أعمال بلنسية شرق الأندلس،

وفيها عاش جل حياته المديدة التي تجاوزت الثمانين ولم يتزوج[١١]، توفي بضيعته الموجودة في الجزيرة نفسها.

ولقد انشغل بابن خفاجة كثير من أدباء عصره وبتتبع إنتاجه الأدبي الغزير، مثل " ابن بسام في الذخيرة، وابن خاقان في القلائد، وأبي الصلت في الحديقة، والحجازي في المسهب، ونوه به الرشاطي في بعض ما ألف، وامتدت شهرته في حياته مع المرتحلين إلى الشرق" [١٢]، أحب ابن خفاجة الأندلس حبًا جمًا، وكان أكثر شعره في طبيعتها الخلابة فيقول في ذلك: **(البسيط)**

يا أهلَ أندلـــسٍ للهِ دَرُّكُـــمُ ماءٌ وظِـــلٌ وأنهارٌ وأشجارُ
ما جَنةُ الخُلـــدِ إلا في دِيارِكُـــمُ ولو تَخَيــرتُ هذا كنتُ أختـارُ
لا تختَشوا بعدَ ذا أن تدخلوا سَقرا فلَيسَ تُدخَـــلُ بعدَ الجَنةِ النارُ[١٣]

ولقد عزف ابن خفاجة عن الشعر السياسي في عصر ملوك الطوائف بسبب مشاعره الفياضة تجاه بلده، فلم يمدح أي حاكم في هذه ظلال هذه الدولة المفتتة، بالرغم من قوله الشعر في أغراض مختلفة، ويعود ذلك ربما لشعوره بمسئولية هؤلاء الحكام عما آلت إليه الأندلس من انهيار وتفكك، وفي ذلك يقول ابن بسام" ولا أعرفه تعرض لملوك الطوائف بوقتنا، على أن نشأ في أيامهم، ونظر إلى تهافتهم في الأدب وازدحامهم"[١٤]، ولكنه عاد إلى الشعر مرة أخرى حين دخل الأمير أبو إسحاق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين دولة الأندلس حاكمًا لها ومخلصًا لها من حكم ملوك الطوائف عام ٤٩٣هـ وأقام حكم المرابطين، حيث رأى فيهم القدرة والقوة على تجميع شتات الدولة الممزقة مرة أخرى وإيقاف سقوط المدن الأندلسية في يد النصارى.

١-بواعث الزهد في شعر إبن خفاجة

ولعل من المفيد التوقف قليلًا هنا عند أقسام الزهاد بصفة عامة وهم ينقسمون إلى قسمين رئيسين، الأول هو من نشأ نشأة إسلامية صحيحة مثل العُباد والفقهاء والقضاة ورجال الدين الذين كانوا مهيئين فكريًا واجتماعيًا للسير في طريق الزهد والعبادة، أما القسم الثاني فهو الذي بدأ حياته باللهو والمجون، ولكنه تاب واستغفر، ولقد أُطلق عليه زهد الشيخوخة ويصدر عن الخوف من الموت وما بعده فيدعو إلى التقوى والمبادرة إلى الندم والإقلاع عن الذنوب[١٥].

ويُمكن ملاحظة أن ابن خفاجة ليس من الشعراء الزهاد الذين نشئوا على تعاليم الإسلام الصحيحة، بل بدأ حياته باللهو والمجون، ولكنه في آخر حياته – بعد سن الستين – أقلع عن هذه الذنوب وأسرع إلى التوبة والاستغفار، ولزم الزهد والتقوى في البقية من حياته، ولقد سجل لنا ابن بسام حياة ابن خفاجة المتقلبة بقوله " وكان في شيبته مخلوع الرسن في ميدان مجونه، كثير الوسن ما بين صفا الانتهاك وحجونه، لا يبالي بمن التبس، ولا بأي نار اقتبس، إلا أنه قد نسك اليوم نسك ابن أذينة، وأغضى عن إرسال نظره في أعقاب الهوى عينه"[١٦].

والمتأمل في شعر ابن خفاجة الزهدي سيجد ارتباطًا وثيقًا بين الزهد وعناصر الطبيعة الأندلسية، فابن خفاجة " لم يكتف بأن يربط الطبيعة بموضوع الحب ومجلس الخمر، بل ربطها بكل موضوع، وجعلها المتكأ الذي يستند إليه في القول الشعري عامة: ربطها بوضوع الرثاء أولا، ثم بموضوع الفناء والزهد عامة فبعث فيها المعاني الحزينة وتحدث إليها وتحدثت إليه، في صمتها أو حركتها، بمعاني العبرة – وإذا صدقنا التقدير نقضنا على أنفسنا القول بأنه شاعر الطبيعة وقلنا إنه كان يرى الطبيعة في إطار الفناء، وضمن إحساسه بالتغير، وحسه الدقيق بالصراع بينه وبين الزمن"[١٧] فالطبيعة كانت تمثل الفضاء الشعري لابن خفاجة دائمًا، والذي من خلاله يستطيع أن ينفذ إلى أي غرض شعري يريد أن يبدع فيه، ففي رثائه لابن أخته مُحَمَّد يقول: **(الطويل)**

تَراني أذا أَعوَلتُ حُزنــا حَمامَةً ... تُرِنُّ وطــورًا أَيكَــةً تَتَرَنحُ
غَريقًا بِبَحرِ الدمعِ والهَم والدّجَى ... ولو كانَ بَحـرًا واحدًا كنتُ أسبحُ
أُحَمّلُ أنفــاسَ الشمــالِ تَحيـةً ... يَنُوءُ بها مِن مـاءِ جَفنـي فيَرزحُ
فَلـي نَظرَةٌ نحوَ السماءِ ولَوعـةٌ ... تَلَدَّدُ بي نحوَ الجَنُــوبِ فَأجنـحُ[١٨]

فالفضاء الشعري له في هذه الأبيات يرتكز على مفردات من الطبيعة مثل (الحمامة / الأيكة / بحر/ الدجى/ أنفاس الشمال/ السماء)، وهي هنا مشتركة معه في مشاعره الفياضة ويرتكن عليها ليُظهر من خلالها مشاعره الحزينة على ابن أخته الذي توفى في ريعان شبابه، ولم تكن المراثي فقط صاحبة الاتكاء على الطبيعة بل انتشرت " هذه الموصوفات للطبيعة

بعناصرها بين ثنايا شعره كله، يفيد منها في ابتكار صوره وتشكيل أسلوبه وتنويع معانيه، بل الكشف عن شخصيته وجبلته التي غلبت عليها الطبيعة وحددت توجهها" (١٩).

فالطبيعة بالنسبة لابن خفاجة هي مصدر الإلهام الذي يستمد منها صوره ليعيد تشكيلها ببراعة لتتوافق مع الأغراض الشعرية المتعددة التي أبدع فيها، ، فلقد " اقتحمت الطبيعة في الأندلس ميدانًا من ميادين الشعر يبدو للمرء ألا رباط بينهما، ونعني به ميدان القول في الشكوى والتحسر، فالطبيعة بسمة ومتعة وأمل وإشراق، والشكوى حسرة ويأس وكآبة وحزن"(٢٠)، واستخدمها ابن خفاجة أيضًا باعتبارها رمزًا للخلود والبقاء في مواجهة الفناء كما ستتناول الدراسة.

١-١الشيب والمشيب

إن التوقف أمام الشيب والبكاء على فترة الشباب من الظواهر الأدبية التي انتشرت في الشعر العربي بصفة عامة سواء في المشرق أو المغرب، فالشيب هو نذير بانتهاء فترة الشباب وقرب الرحيل، فـ " ما بكت العرب على شيء ما بكت على الشباب، ولم يكن الشباب حميدًا وزمانه حبيبًا لوسامة صورته وبهجة منظره، وجمال خلقته واعتدال قامته، لما جاور الله في جنات خلده شاب" (٢١)، فالإنسان في دور الشباب ينصرف إلى الماديات ويكون جل همه تحصيلها وعندما يصل إلى عتبة الشيخوخة، ويشعر بضعف الجسد والعجز يقف متأملًا حياة الناس وطبائعها ويحاول أن يفهم الدنيا بعللها، ثم لا يلبث أن يجد نفسه قد زهد الدنيا(٢٢)، وعندما يبدأ الشيب في رأس شاعرنا نجده يتذكر فترة شبابه التي مرت عليه كلمح البصر ويتحسر عليها، ويبدأ في تبين مرحلة الشيخوخة، فحين "انصدع ليل الشباب عن فجره، ورغب المشيب بنا عن هجره، نزلت عنه مركبًا، وتبدلت به مذهبًا، فأضربت عنه برهة من الزمان طويلة، إضراب راغب عنه، زاهد فيه، حتى كأني ما سامرته جليسا"(٢٣).

ويبدو أن ابن خفاجة منذ أن بدأ عهد الشباب يمر وهو يتابع بدقة ظهور الشيب في رأسه، فيمزج ابن خفاجة كما عهدناه بين الطبيعة وبين ظهور الشيب في رأسه فيقول: **(الوافر)**

أرِقتُ على الصبَا لطُلوعِ نجمٍ أُسَمْيهِ مُسامَحَةً مَشيبَا (٢٤)

وهنا يبدى قلقه من ظهور الشيب في صورة ظهور نجم ساطع، ولكنه يتعامل مع هذا الأمر وهو يعلم في قرارة نفسه أنه لا يملك من أمره شيئًا فلا يستطيع أن يوقف ظهوره، فيسميه وهو يظهر التسامح الظاهري مشيبًا، ولا يبتعد الشاعر عن الطبيعة التي تحضر بقوة في النجم/الشيب الذي يبدأ مرحلة الشروق ونشر الضوء/المشيب على رأسه.

ولكن لا يظل الحال على ما هو عليه إذ يبدأ الشيب في الازياد، فيقول: **(الطويل)**

وقد لاحَ صُبحُ الشيبِ وانسلَخَ الصبَا فيا صُبحُ ما أجلى ويَا ليلُ مَا أَسْرَى! [٢٥]

فالشيب هنا قد بدأ في الظهور في الرأس مثل ظهور الصباح بضوئه الأبيض، كما شهد انسلاخ الشعر الأسود وتحوله شيئا فشيئًا إلى المشيب كانسلاخ الليل من النهار، وهنا يتناص مع قوله تعالى {وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ}[٢٦]، ثم تأتي المقابلة في الشطر الثاني لتوضح لنا حجم الأسى الذي يشعر به شاعرنا من ظهور الصبح وانسلاخ الليل في وقت السرى، ويأتي التضاد بين (الشيب والصبا) و(صبح وليل) ليظهر مدى تغير الحال الذي طرأ على الشاعر.

ثم يندب حظه لأن زمان الصبا والشباب قد مر سريعًا، فقد كان ينال فيه ما يرضيه ويستمتع به، حيث "كنت والشباب يرف غضارة، ويخف بي غرارة، فأقوم طورًا وأقعد تارة– قد جنحت إلى الأدب أرتاده مرتعًا، وأرده مشرعًا، فما تصفحت مثل شعر الرضي، ومهيار الديلمي، وعبد المحسن الصوري، وما حذا حذوه وأخذ مأخذه– حتى تملكني من تلك المحاسن الرائعة الرائقة، والألفاظ الشفافة الشائقة، ما يناسب بُرْدَ الشبابِ رِقَّة، وَبَرْدَ الشَّرَابِ رَيْقَة. فما كان إلا أن ملت إليه، وأقبلت عليه، أروقه وأرويه"[٢٧]، ولكن الآن قد مر الشباب بسرعة كبيرة مثل مرور الكواكب في سماء ليلة مظلمة أو مثل البرق الذي يقطع السماء مسرعًا، فيقول: **(السريع)**

ألا مضَى عَصر الصبا فانقَضَى وحَبذا عَصرُ شَبـابٍ مَضَى

بِتُّ بهِ تحتَ ظِـلالِ المُنـى مُجتَنيـا منـهُ ثِمارَ الرضَا

ثم مَضَـى أحسِبُـه كَوكَبـا   مُنكـدِرًا أو بَارِقا مُومِضَا [٢٨]

فظلال المنى وثمار الرضى هي المعادل الموضوعي لظلال الأندلس الوارفة وثمار الأشجار الناضجة في الطبيعة الأندلسية الخلابة والتي لها حضورها الواضح عند الحديث عن فترة شبابه اللاهية.

ويحاول ابن خفاجة أن يسترجع ذكرياته وماضيه الذي انفصل عنه، فيقول: **(الطويل)**

أما وشَبابٌ قد تَرامَـتْ بهِ النـوَى   فأرسَلْتُ في أعقابِه نَظـرَةً عَبـرَى
لقد رَكِبَتْ ظَهرَ السـرَى بـي نَومَـةٌ   فأصبَحتُ في أرضٍ وقد بت في أُخرَى
أُقَلبُ جَفنـا لا يجِـف فكُلـما   تأوهت من شكوَى تألمت عـن شَكرَى [٢٩]

فيصور شبابه في البيت الأول بشخص يبتعد عنه كثيرًا فظل ينظر إليه وعيناه تبكي بالدموع، فيجد نفسه فجأة قد استيقظ في زمن آخر ومكان مختلف بعد أن كان في زمن الشباب وأرضه التي يألفها، لذا لا

ينفك يبكي من الشكوى على ذكرياته الجميلة، ثم يقول في نهاية المقطوعة:

فَليتَ حَديثًـا للحَداثَـةِ لو جَـرَى   فأسلَـى وطَيفـا للشبِيبَـةِ لو أسرَى [٣٠]

فيتمنى أن يتحدث عن ذكرياته التي يمكن أن تنسيه وتخرجه من حزن حياته الحالية، أو يأتي إليه طيفٌ من حياته الماضية في المنام فيخفف عنه ويسعده.

ويتبدى لنا التضاد والنزاع الداخلي الذي يعاني منه الشاعر من خلال ثنائية الصبا والمشيب وذلك حين يقول: **(السريع)**

وإنما ضاءَ بلَيـلِ الصبَـا   صُبحُ مَشيبٍ ساءَني أنْ أضَا
لاحَ فَفـي عَينـي نُورُ الهُدَى   منهُ وفي قَلبـي نـارُ الغَضَا
وأبيَض مِـن فَـودي بهِ أسوَدٌ   كنتُ أرى الليلَ بهِ أبيَضَـا [٣١]

فليل الصبا والشباب والشعر الأسود اللامع قد انتهى بسرعة وظهر الشيب مكانه واتضح في رأسه وسبب له حزنًا، ولكن هذا الشيب جعله يفكر بعقلانية أكثر في الحياة فاهتدى للحق المبين، وإن كان في قلبه شوقٌ وحنينٌ لحياة الشباب اللاهية، وكان تزاحم الألوان له دورٌ في تحقق

الرؤية البصرية الواضحة، حيث يوجد (ضوء الليل – صبح المشيب – نور الهدى – نار الغضا – أبيض – أسود) فهذا الحشد أبرز الفرق في ملامح الشاعر ومشاعره تجاه المشيب وفراق الشباب.

ومن المفيد ذكر أن ابن خفاجة كان يثبت تقدمه في العمر في الأبيات كنوع من أنواع التحسر على ما مضى من حياته، فيقول " فآه! ثم آه! على شباب قد انقلب، وذهاب قد اقترب، فلا تناجى إلا بعمل يتعقب، وأجل يترقب! وعلى ذكر ذلك أني كنت منذ ليال قد أرقت، فتلددت أنظر في أعقاب ما مضى من عمري فانقضى، وأتوقى على شفافة ما غبر منه وتبقى، فسنح لي أن قلت: **(الوافر)**

ألا سَاجِـل دُمُوعي يا غَمـامُ ... وَطَارِحْنِي بِشَجْوِكَ يا حَمَـامُ
فَقَدْ وَفيتُـها ستيــنَ حــوْلا ... وَنادَتْنِي وَرَائِي هَل أَمَـــامُ

.....

فَيَا شَرخَ الشَّبــابِ ألا لِقَــاءٌ ... يُبَـل بِهِ على يـــأس أُوامُ
وَيا ظِـل الشَّبَـابِ وَكُنْتَ تَنْدَي ... عَلَى أَفْيَاء سَرْحَتِـــكَ السَّلَامُ (٣٢)

وهنا يقيم الشاعر حوارًا مع الطبيعة من خلال عناصرها السحاب والحمام، حيث ينادي شاعرنا باستعطاف على السحاب ويطلب منه يتشارك معه في البكاء، كما يناجي الحمام أن يطارحه همه وحزنه، وكأن الطبيعة هي الأم التي يلجأ إليها ليبث فيها همومه وأطراحه، ثم يكشف لنا عن سبب بكائه الشديد وحزنه البادي عليه لأنه قد وصل إلى عمر ستين عامًا ويشك في حياته القادمة حيث لا يتوقع أن يعيش أكثر مما عاش، بل إن سنوات عمره تستنكر عليه رغبته في المزيد من الحياة، ثم ينتقل إلى التحسر على أيام شبابه الوارفة الماضية ويتمنى – على الرغم من يأسه – أن يعود إليها مرة أخرى.

ثم يعقب بعد هذه الأبيات بقوله " فما كان إلا أن صرخت عويلًا، وانتحبت طويلًا، حتى أيقظت من كان إلى جانبي ضجيعًا، وزدت فكدت أحيل الدمع نجيعا. وحق لمن شاهد تضعضع

أركانه، وتداعي بنيانه، وذهاب خلانه، وإدبار عمره وزمانه، أن يطرق هنالك فكرة، ويملأ جفنيه عبرة، ويُردد الأسف جمرة، حتى يذوب كمدا أو يقضي حسرة"[٣٣]، فكشف السياق اللاحق عن المأزق النفسي الذي يعيش فيه الشاعر، ويوضح فيه سبب لجوئه إلى الزهد.

وقد بلغ اليأس مبلغه حين بلغ إحدى وثمانين سنة، فلا راحة ولا متعة في هذا العمر المديد، فيقول:

(مجزوء الرمل)

أي عَيــشٍ أو غِذاءٍ أو سِنَه ... لِابنِ إحــدَى وثَمانينَ سَنهْ

قَلَّصَ الشَّيبُ بهِ ظلَّ امــرِئ ... طالَمــا جَــر صِباهُ رَسَنهْ

تارَةً تَسطُــو بــهِ سَيئَــة ... تُسخِنُ العَين وأُخرَى حسَنهْ [٣٤]

فالشيب يمتص أشعة الشمس ولا يعكسها فلا ظل له أي بلا جسد، وكثيرًا ما شجعه شبابه على ارتكاب المعاصي فيتذكر ما فعل فيسكب العبرات على ما مضى وفات.

٢-١ فقد الأحبة والأصحاب

يتأثر الإنسان بموت وفقد أحبابه وأصحابه من حوله، فيترك هذا كله ندبات في مشاعره لا يزول أثرها، وحزنًا قد يهدأ أحيانًا ولكنه لا يلبث أن يشتعل مع أي ذكرى أو موقف، ويحدث الفَقد تغييرات واضحة في الشخصية، فلا يعود الإنسان كما كان قبل الفراق والموت، ولقد مرَّ شاعرنا بهذا الموقف الحزين حيث توفي جملة من أترابه وأصحابه في حياته مما تسبب في تنغيص لذاته وحياته، حيث أصبح وحيدًا، وظل ينتظر الموت في جو مشحون بالخوف والقلق، حتى إن الضبي ذكر عنه أنه كان يخرج حتى يصل بين جبلين في جزيرته (شقر) وينادي بأعلى صوته يا إبراهيم تموت – يقصد نفسه – فيجيبه الصدى، ولا يزال كذلك حتى يخر مغشيا عليه[٣٥].

وكان فراق أصحابه له على امتداد حياته المديدة دافعًا قويًا للزهد لديه، فلقد عاش معهم جُل حياته وجمعتهم المجالس الأدبية ومجالس اللهو، لذا نرى في ديوانه الكثير من المراثي لأصاقدئه، فـ "أين من قد عرفنا وألفنا من الإخوان؟ بانوا، وكأنهم ما كانوا، وفقدوا، وكأنهم ما

وجدوا. فها أنا لا أستريح فيهم إلا إلى شكوى، تقض المضجع، وتنفض الأضلع، ولا أنطوي على ذكرى، تصدع حصاة القلب، وتؤذن بالظعن في أعقاب ذلك الركب"[٣٦].

ولقد أبدع الكثير من المراثي التي يصور فيها مشاعره، فقال يرثي الوزير عبد الله بن مُحَمَّد بن أبي ربيعة وقد "كانا قد جمعت بينهما أذمة الشباب، ومحضر الكتاب، وقراءة الحساب والآداب، فكانا من الانتظام والالتحام، بحيث لا يريان ينفصلان"[٣٧]، فيقول: **(الطويل)**

جَمَحنا بمَيدانِ الصبَا، ثم إننـــا كَرَرنا، فكانَتْ فِتنـــةٌ ومَتـــابُ
ولما تَراءَتْ للمَشيـــبِ بُرَيقَـــةٌ وأقشَعَ من ظِل الشبابِ سَحـــابُ
نَهَضنا بأعباءِ الليـــالي جَزالَـــةً وأرسَتْ بنا في النائِباتِ هِضابُ [٣٨]

حيث يدل الفعل (جمحنا) على عدم التحكم في الأفعال والابتعاد عن طريق الصواب والرشد في فترة الشباب، وتأتي لحظة التوبة من الفعل (كررنا) فكانت التوبة إلى الله بعد ما فُتن هو أصحابه من الدنيا، ثم يبدأ علاقة شرطية بين ظهور المشيب ولمعانه في رأسه مع سرعة تبدد ظلال الشباب التي مرّتَ كأنها سحابة من جهة وبين شعوره بتحمل ثقل الليالي عليه بأعبائها ومصائبها التي لا تنتهي.

وفي صورة خيالية مؤثرة يخاطب ابن خفاجة صديقه المُتَوفى في القصيدة ذاتها ليعبر عن حالة الحزن القاسي الذي يعتريه، فيقول:

فَيا ظاعِنا قد حُط من ساحـــة البِلى بمَنزِلِ بَين لَيـــسَ عَنهُ إيَابُ
كفَى حَزَنًا أن لم يَرِدني على النّوى رَسُولٌ ولم يَنفُـــذْ إليـــكَ كتابُ
وأنّي إذا يَممـــتُ قَبـــرَكَ زائرًا وقفتُ ودوني للترابِ حِجـــابُ [٣٩]

وهنا تتبدى مأساة الشاعر الذي لم يستوعب بعد أن صديقه قد توفى، فيجعله مسافرًا ولكنه مسافر لن يعود من سفره ولن يستطيع أن يتواصل معه مرة أخرى على الرغم من زيارته لقبره؛ لأن التراب قد شكل مانعًا بينه وصديقه.

ثم ينعي صديقه أبا ربيعة في قصيدة أخرى، فيقول: **(الكامل)**

يا أيها النّائي ولَسـتَ بمُسِمعٍ سَكْنَ القُبُــورِ وبَيْنَنا أسـداُدُ
ما تَفعَلُ النفسُ النَّفيسَة عنـدَما تَتَهـاجَرُ الأرواحُ والأجسـادُ
كُشِفَ الغِطاءُ إليكَ عن سرِّ الرّدى فأجِبْ بمـا تَنـدَى بهِ الأكبادُ (٤٠)

وهنا ينادي ابن خفاجة على صديقه المُتوفى/ البعيد ولكن لا مجيب، حيث لا يَسمع ساكنو القبور بسبب الموانع والحوائل بينهما، وهنا تناص ابن خفاجة مع النص القرآني وإن اختلف السياق، فلقد قال الله تعالى {وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ} (٤١)، حيث تتحدث الآية الكريمة عن حال الكفار الذين لا يستجيبون إلى دعوة الإيمان فهم كالموتى الذين لا يسمعون الأحياء، بينما في نص ابن خفاجة نراه يتألم أن صوته لا يصل إليه ليسأله في حسرة وندم على ما يجب أن يفعله لكي يتواصل مع من يحب، ثم يطلب من صديقه أن يكشف سر الموت لأنه قد علمه بالضرورة لأنه قد مات!! وبسببه تتقطع الأكباد من شدة الحزن والألم!!

وتَرَكتُـهُ والمَجـدُ يُرغِم أنفَه متَوَسِّدًا حَيـثُ الترابُ وِسَادُ
في مَوطِنٍ نَزَلَتهُ جُرهُـمُ قَبلَـهُ وتَحَوَّلَـتْ إرَمٌ إلَيـهِ وعـادُ
أُممٌ يَغص بها الفَضاءُ طَوَتهـم كفُّ الردى طَـيَّ الرداءِ فبادُوا (٤٢)

فأصبح القبر هو بيته والتراب هو وسادته على الرغم من علو شأنه في الدنيا والذي لم يشفع له حتى يتركه الموت، وهنا يستدعي شاعرنا التاريخ ليصبر نفسه وليؤكد على حقيقة الموت أنه النهاية الحتمية لكل كائن حي، فما استعصت شعوب جرهم وإرم وعاد عليه، فلقد امتلأت الأرض بمن كان يُظن أنهم مخلدون، فذهبوا بلا رجعة.

وعندما وقع سيل شديد فدمر البيوت ومحا آثار القبور، فتأثر ابن خفاجة تأثرا شديدا بهذا المشهد، فقال: **(الطويل)**

أكُر بطَرفي في مَعاهِـد فتيـةٍ ثَكِلتُهُمُ بِيـضَ الوُجوهِ شَبَابَـا
فَطالَ وُقُوفي بَينَ وجـدٍ وزَفـرَةٍ أُنادي رُسُومًا لا تُجِيرُ جَوابَـا
وأمحُـو جَميلَ الصبرِ طَورًا بعَبرةٍ أخُط بها في صَفحَتَـي كِتابَـا (٤٣)

وقد دَرّسَتْ أجســـامُهُـمْ ودِيارُهُم   فَلَم أرَ إلا أقبُـــرًا ويَبَـــابَـــا
وحَسبيَ شَجوًا أن أرَى الـدارَ بَلقَعًا   خَلاءً، وأشلاءَ الصديقِ تُرابَـــا (٤٤)

حيث تتبدى مأساة الشاعر حين يرى الأماكن التي كان يتردد عليها أصحابه بعدما فقدهم، فينادي عليهم ولكنه لا يتلقى الرد أبدًا، لذا يحاول أن يصبر لكن دموعه تغالبه، فهو لا يرى إلا القبور التي يرقدون فيها، والتراب الذي تحول إليه أصحابه.

لذا فإنه وهو يبكي حالهم يبتهل لله طمعًا في أن يرحمهم برحمته يقول: **(الكامل)**

وَرَفَعتُ كَفي بَينَ طَـــرفٍ خاشِعٍ   تَنــدَى مآقيـــهِ وبَيـنَ دُعاءِ(٤٥)

إن الشعور بالأسى على فقدان صديقه الذي اجتمع معه في الشباب والشيبة يجعله يتصور أنه قد سافر، ولكنه يتساءل في حسرة هل يعود من هذا السفر؟! فيقول: **(الطويل)**

ألا ظَعَنَـا مِن صاحـــبٍ وشَبيبَــةٍ   فهَلْ لهُمــا من ظاعِنَينِ إيَابُ
دَعا بهِما صَرفُ الليالـــي إلى البِلى   فكُل الــذي فَوقَ الترابِ تُرابُ (٤٦)

فذلك الشعور بالقهر والاستسلام للموت يدفعه إلى التفكير بطريقة أعمق في فهم الكون وحياة البشر حيث لا مفر من الموت (فكل الذي فوق التراب تراب)، ويقترب ابن خفاجة متناصا مع الشاعر أبي فراس الحمداني حين قال:**(الطويل)**

وَلَيـــتَ الذي بَينِي وبَينَكَ عَامِرٌ   وَبَيْنـــي وَبَينَ العالمِينِ خَرَابُ
إذا صَـــحَ مِنَك الود فَالكل هَين   وَكل الذي فَوقَ التـــرَابِ تُرابُ(٤٧)

ولكن هنا حدث انزياح جمالي من خلال التناص المباشر، حيث قام ابن خقاجة بعملية هدم مقصودة لنص أبي فراس، وقام بعملية بناء جديدة في سياق مغاير تماما للنص المتناص معه، فأبو فراس الحمداني قد كتب قصيدته تلك عندما " امتنع الأمير سيف الدولة من إخراج ابن أخت الملك – وهو أبو فراس الحمداني– إلا بفداء عام، وحُمل الأمير أبو فراس إلى القسطنطينية وبلغه بها بلاغه فقال – هذه الأبيات – وهو في الأسر" (٤٨)، فأبو فراس هنا يمدح سيف

الدولة ويرجوه أن يخرجه من الأسر الذي يعاني فيه، لذا يصبغ عليه صفات بطريقة مبالغة وذلك حينما يضع رضا سيف الدولة في كفة وكل البشر في كفة أخرى.

أما ابن خفاجة فلقد وضع شطر البيت المتناص معه في سياق الزهد في الحياة وهو مغاير تماما لسياق أبي فراس الحمداني، فشاعرنا يرى أن كل إنسان يمشي على الأرض إنما هو تراب يمشي على تراب، فأصحابه طالتهم يد الموت فتحولوا إلى تراب، وكل من هو حي سيلحق بهم.

ولا يكف ابن خفاجة عن طرح التساؤلات التي تكشف عن حالة عدم استقراره النفسي بسبب موت أصدقائه المتتابع، فيقول: **(الطويل)**

وَحَتى مَتى أَبْقَى ويَظْعَن صَاحبٌ أُوَدعُ مِنْـه رَاحِــلا غَيْر آيِبِ (٤٩)

ولا يمكن أن يتم استبعاد الشعور بالوحدة بسبب عدم زواجه وبالتالي عدم وجود أبناء له أيضًا، فهو يودع كل فترة صديقًا له، ويطرح تساؤلًا مأساويًا عن موعد وفاته مثل أصحابه الذين سبقوه إلى الموت. ويربط ابن خفاجة بين الدهر وبين المحارب في المعركة والذي لا يتوقف عن إطلاق سهام الموت، وهو يقف أمامها عاجزًا عن اجتنابها في لوحة زهدية بديعة، فيقول: **(الطويل)**

فَحَتى مَتى تَبري الليالِي سِهَامَها وحَتى مَتى أُرمَى بها فأُصــابُ
وَحَتى مَتى ألقَى الرزايا مُمِضــةً كما كَرَعَت بَين الضلوعِ حِرابُ(٥٠)

فتأتي التساؤلات الاستنكارية الممتزجة بالرجاء عن موعد توقف ضرب السهام من الليالي/المحارب عليه، والتي تصيبه فتجعله يتوجع باستمرار، فجسده أصبح مثخنًا بالسهام والحراب/ المصائب، لذا فهو يتضرع إلى الدهر كي يرحمه من مصائب الموت التي لا تتوقف.

ولا يتوقف ابن خفاجة عن طرح تساؤلاته التي تشي بفجيعته في مصيبته بفقد أصحابه، حيث يقول: **(الطويل)**

لقَد صَدَعَت أيدي الحَوادثِ شَملَنا فهل من تَلاقٍ بعدَ هذا التفَــرقِ
وإن يَكُ للخِليــنِ ثَــم التقاءَةٌ فيا لَيتَ شعري أينَ أو كيفَ نَلتَقي (٥١)

فتأتي التساؤلات مترابطة ومتماسكة في هذين البيتين، حيث يعبر التساؤل الأول عن حقيقة تقابله مرة أخرى مع الأصحاب بعدما فرق الدهر بينهم بالموت، وإذا كانت الإجابة بنعم وتم هذا اللقاء – وفي هذا شك كبير في رأيه! – فيطرح السؤال الثاني عن مكان هذا اللقاء مع الأصحاب، وكيفيته، فكل هذه التساؤلات التي طرحها ابن خفاجة في قصائده المختلفة تجعلنا نرى شاعرًا قلقًا مضطربًا من فكرة الموت الذي يحيط به من كل اتجاه، خاصة بعدما عرفنا أن حياته كانت لهوًا ومجونًا.

٣-١الوحدة والاغتراب النفسي

إن معاناة الشاعر من الوحدة بعد وفاة أصحابه كانت دافعًا قويًا له ليلجأ إلى الزهد، فلقد بدا شخصية قلقة تبحث عن ذاتها كما في قوله: **(السريع)**

غَيرِي مَنْ يَعتَد مِنْ أُنسِـــهِ　　　مَا نَالَ مِنْ سَاقٍ ومِن كَأْسِهِ
وشَأنُ مِثْـلِي أنْ يُرَى خَاليـا　　　بِنَفسِهِ يَبْحــثُ عَن نَفْسِـهِ (٥٢)

فهو إنسان تائه ما انفك يبحث عن ذاته دون جدوى، ويتبدى الإحساس بالوحدة والغربة في قصيدة الجبل التي مطلعها: **(الطويل)**

بَعَيشِكَ هَل تَدري أَهـوجُ الجَنائِبِ　　　تَخُبُّ بِرَحلـــي أَم ظُهورُ النَجائِبِ
فَما لُحتُ في أولى المَشارِقِ كَوكَبًا　　　فَأَشرَقتُ حَتّى جِئتُ أُخرى المَغارِبِ
وحيدًا تَهـــاداني الفيـافي فأجتَلي　　　وجوهَ المَنـــايا في قِنـاعِ الغَياهِبِ
ولا جار إلا من حســـام مصمم　　　ولا دار إلا في قتـــود الركائِـبِ(٥٣)

ففي هذه الأبيات يوجه الشاعر كاف الخطاب إلى الآنا /الآخر (بعيشك)، وكأنه جرد من نفسه شخصًا آخر يحاوره ويناقشه، فيأتي التساؤل في البيت الأول ليكشف حيرته الشديدة حول المُسيرِ لرحلته في الحياة، فهل هي الرياح القوية الهوجاء التي أفقدته الطريق أم الناقة التي لا يستطيع السيطرة عليها؟! فهو مسافر – في البيت الثاني – يمر عبر البلاد من خلال رحلة حياته التي بدأها مثل الكوكب اللامع وهو شاب، وانتهى به المطاف إلى الوحدة

والعجز(المغارب)، فالغربة جعلته يعيش في عالم لا يوجد به أنيس، كأن حياته سفر دائم في صحراء متصلة لا تنقطع يمشي بها دون هدى، وكل ما يقابله في الطريق هو الوجوه المتعددة للموت والتي تظهر له في الليل فتثير فزعه، ويستخدم أسلوب القصر في البيت الرابع كله حين يلجأ إلى السيف ليحميه ويستنجد به ويستمد منه الأمن فهو (جار) وهي صورة تراثية مأخوذة من المشرق العربي حين يلجأ الضعيف إلى القوي ليجيره ويحميه من بطش الآخرين له، وحين لا ينزل شاعرنا من راحلته أبدًا، كناية عن عدم وجود الاستقرار والراحة، ويتجلى فضاء الطبيعة في إبداع ابن خفاجة ويحكم سيطرته على قصيدته من خلال ألفاظ (الجنائب– النجائب– المشارق– الكوكب – المغارب – الشروق – الفيافي – الغياهب).

ولا تنتهي الرحلة هنا بل تستمر لأنه مازال يبحث عن شريك له يؤنسه حتى يقابل الرفيق (الجبل)، فيقول:

فَمَزَّقتُ جَيبَ اللَيلِ عَن شَخصِ أَطلَسٍ تَطَلَّعَ وَضّاحَ المَضـاحِكِ قاطِبِ
رَأَيتُ بِهِ قِطعاً مِنَ الفَجرِ أَغبَـشًا تَأَمَّلَ عَن نَجـــمٍ تَوَقَّدَ ثاقِبِ
وَأَرعَنَ طَمّـــاحِ الذُؤابَةِ بـــاذِخٍ يُطـــاوِلُ أَعنانَ السَماءِ بِغارِبِ
يَسُدُّ مَهَبَّ الريحِ عَن كُلِّ وُجهَـــةٍ وَيَـزحَـــمُ لَيلاً شُهبَهُ بِالمَناكِبِ
وَقورٍ عَلى ظَهـــرِ الفَـــلاةِ كَأَنّهُ طِـــوالَ اللَيالي مُفكِّرٌ في العَواقِبِ (٥٤)

وتصبح المقابلة حتمية من خلال الفعل (مزقتُ) والذي يدل على شدة إصرار الشاعر، فهو غير مستعد للاستسلام للوحدة والغربة، لذا يضفي ابن خفاجة على الجبل صفات إنسانية ربما ليصبح المعادل الموضوعي لذاته، فهذا الجبل ليس ساكنًا بل يزاحم الليل والشهب بمنكبيه دليل على التصادم والحركة الدائمة مع الكون، ويكون الجبل ذا (رعونة– شموخ – عظمة – وقار) ويأتي هذا الوقار من خلال إطراق الرأس بسبب ديمومة التفكير في العواقب/ نهاية العمر.

فينادي الشاعر عليه بصوت عال ولكن الجبل لا يجيب فهو (أخرس صامت) غير ناطق، ولكن الجبل لا ينفك يجيبه من خلال لسان الحال وليس لسان المقال وذلك في آخر الليل

(السرى) حين يكون الهدوء التام ولا يقاطعه أحد، فيجمع الجبل بين المتناقضات كناية عن شمول الحياة واتساعها، فيقول:

أَصَختُ إِلَيــــهِ وَهوَ أَخرَسُ صامِتٌ فَحَــدَّثَني لَيلُ السُرى بِالعَجائِبِ
وَقالَ أَلا كَــم كُنــتُ مَلجَأَ قاتِلٍ وَمَوطِــنَ أَوّاهٍ تَبَــتَّلَ تائِــبِ
وَكَم مَرَّ بي مِن مُــدلِجٍ وَمُــؤَوِّبٍ وَقــالَ بِظِلّي مِــن مَطِيٍّ وَراكِبِ
وَلاطَمَ مِن نُكبِ الرِياحِ مَعــاطِفي وَزاحَمَ مِن خُضرِ البِحارِ غَوارِبي
فَما كانَ إِلّا أَن طَوَتهُم يَــدُ الــرَدى وَطارَت بِهِم ريحُ النَوى وَالنَوائِبِ
فَما خَفقُ أَيكــــي غَيرَ رَجفَةِ أَضلُعٍ وَلا نَــوحُ وُرقي غَيرَ صَرخَةِ نادِبِ
وَما غَيَّــضَ السُلــوانَ دَمعي وَإِنَّما نَزَفتُ دُموعي في فِراقِ الصَواحِبِ(٥٥)

فالجبل/ الإنسان هو المأمن للقاتل وموطن الزاهد المتعبد الذي يذكر الله كثيرًا، وهو مكان المدلج والمؤوب والذي وقف في وجه الرياح الهوجاء العاتية ووارتمت على جوانبه البحار التي ترمز إلى الخير من خلال اللون الأخضر، وجاء تكرار(كم) الخبرية ليبين كثرة المترددين على الجبل على اختلاف سلوكياتهم ومعتقداتهم، فكل هذه الأضداد تتصارع لتعبر عن الحياة القاسية والتي تنتهي بـ (الردى) الذي قضى عليهم جميعًا، وبقي هو(الجبل/ الشاعر) وحيدًا، وهنا يبكي الجبل حزنًا على من فارقه ويندب من ارتحل عنه بل إنه قد نزف كل دموعه، ثم يتماهى شاعرنا مع الجبل، فيقول:

فَحَتّى مَتى أَبقى وَيَظعَــنُ صاحِــبٌ أُوَدِّعُ مِنــهُ راحِــلاً غَيــرَ آيِبِ
وَحَتّى مَتى أَرعى الكَواكِبَ ساهِــرًا فَمِــن طالِعٍ أُخرى اللَيالي وَغارِبِ(٥٦)

فالجبل/ الشاعر الذي ظل صامدًا أمام الزمن حيث طال به العمر وتجاوز الثمانين عامًا تعب من هذه الحياة وحيدًا غريبًا دون زوجة أو أبناء أو أصدقاء، ثم يختم الشاعر قصيدته فيقول:

فَسَلّى بِما أَبكــى وَسَرّى بِمــا شَجا وَكانَ عَلى عَهدِ السُرى خَيرَ صاحِبِ
وَقُلــتُ وَقَد نَكَّبتُ عَنهُ لِطِيَّــةٍ سَلامٌ فَإِنّا مِــن مُقيــمٍ وَذاهِــبِ(٥٧)

فالجبل كان له خير صاحب على ليلته الطويلة، فكأنما حين تحدث الجبل/ الشاعر عن همومه ارتاح، فلقد توصل إلى نتيجة مفادها أن الدنيا لا تكون على حال واحدة، وأن مصيرها إلى زوال، ويعد التضاد (مقيم / ذاهب) اعترافًا واستسلاما من الشاعر لجدلية الحياة والموت كسنة الكون كله، وربما مثَّل هذا البيت علاجًا نفسيًا للشاعر بعد أن مرَّ بظروف قاسية، فكان اختيار الشاعر للجبل باعتباره معادلًا موضوعيًا له يشي بحالة التأزم من الوحدة والقلق والشعور بالغربة في مجتمعه الذي يعيش فيه.

٢-مظاهر الزهد

ولقد تعددت مظاهر الزهد التي أبدعها ابن خفاجة اعتمادًا على البواعث التي ذكرتها الدراسة آنفًا، فدارت حول الندم على الذنوب، وثنائية الخوف والرجاء، والزهد في الدنيا، وستتوقف الدراسة عند هذه المظاهر للتعرف عليها وبيان خصوصية ابن خفاجة الشعري.

١-٢الندم على الذنوب

يرتبط الميل إلى الزهد بالاعتراف بالذنوب والندم عليها وتنفير الناس منها على اعتبار ما يترتب عليها بعد ذلك من عواقب وخيمة في الدنيا والآخرة، وفي هذه المقطوعة يتحدث ابن خفاجة عن أفعاله أيام شبابه الجامحة، فيقول: (السريع)

ألا دَعاني اليَــومَ داعي النُّهَى ... وقَـومَتْ قِدحيَ أيـدي الخُطوُبْ
وكنتُ خفاقَ جنــاحِ الصبـَا ... جَرارَ أذيـالِ التصابـي سَحُوبْ
فَرُب لَيْــلٍ أقمَــرٍ بِتُّــهُ ... مُـهْتَـزَّ أعطافِ الأمـاني طَرُوبْ
هَصَرتُ فيهِ من غُصُونِ الصبـَا ... وبِـــت أجني من ثِمـارِ الذنوبْ(٥٨)

حيث ترك تقدم العمر أثرًا في عقل ابن خفاجة جعله يعيد التفكير فيما كان فعله وهو شاب، فلقد استمتع بما كان يقوم به، حيث يتشابه مع الطائر الذي يحلق في السماء دون حدود، وفي صورة فنية جميلة يصور ما كان يفعله من لهو ومجون بغرس شجرة بدأ وهو كبير بجني ثمارها ولكن هذه الثمار مُرةٌ تؤذيه.

ولا ينكر ابن خفاجة اشتياقه إلى فعل الشباب ولكن الهداية مع تقدمه في السن قد ظهرت وتبدت فلا يمكن أن يتغافل عنها، ومن المفيد ملاحظة أن شاعرنا يربط بين ظهور الشيب – الذي أحزنه – وبين الهداية، حيث يؤثر الشيب في النفس وينعكس على التصرفات والسلوكيات، في قوله: **(السريع)**

وإنما ضَاء بِليـــلِ الصبَا صُبحُ مَشيبٍ سَـاءَني أن أَضَا

لاحَ فَفي عَيني نُورُ الهُدَى منـــهُ وفي قَلـبِي نَار الغَضَا (٥٩)

فالشيب يرمز إلى الاتزان والوقار والحكمة، فهو إنذار باقتراب الرحيل عن هذه الحياة.

ويستنكر الشاعر مدى الغفلة التي يعيش فيها الإنسان، فيقول ناصحًا: **(الطويل)**

ومـــا الغَـيُّ إلا أن يُعبِّدَنا الهَوَى ولم نَدرِ، جَهـلا أننا مَعشرٌ أسرَى (٦٠)

فنحن نظلم أنفسنا حيث نترك الهوى والميل إلى اللهو والمجون يتحكم فينا ويصبح هو الآمر الناهي في حياتنا، فنتحول إلى أسرى لا خلاص لهم منه.

ويندم ابن خفاجة على ارتكابه المعاصي والذنوب، فيقول: **(الطويل)**

وكلُّ امرِىء طاشَتْ بهِ غِرة الصبَا إذا ما تَحَلى بالمَشيـــبِ تَحَلمَـــا

فَها أنا ألقَى كـــل لَيـــلٍ بلَيلَـــةٍ من الهم يستَجري من الدمع أنجُمَا

وأركَبُ أردافَ الرُّبـــى مُتَأسفًـا فأنشَـــقُ أنْفـاسَ الصبَا مُتنسِمَا

وأرشُفُ نَثرَ الطّل من كـــل وَردَةٍ مَكـانَ بياضِ الثغرِ من حُوةِ اللمَى (٦١)

إن الشباب دائمًا طائش في تصرفاته وعندما يصل الإنسان إلى المشيب يتعقل ويتصرف بطريقة صحيحة، ثم يطبق هذه المقولة على نفسه فيندم على كل ما فعله وهو شاب فيبكي لياليه من الهم والحزن، وفي هذه الأبيات يستدعي شاعرنا الطبيعة للتعبير عن شدة ندمه خلال (الرُّبى – أنفاس الصبا – متنسما– وردة)، حيث الطبيعة هي الملجأ الذي يلوذ به، فيذهب إلى الأماكن المرتفعة لكي يتمتع بالخلوة والقرب من الله متضرعًا ليغفر ذنوبه، ويستبدل قبلاته

للغواني الفاتنات بارتشافه لنثر الطل من الورود كناية عن إقلاعه لحياة اللهو والمعاصي، فالورود بصفتها عنصر من الطبيعة النقية هي البديل الأمثل للنساء السيئات السمعة.

ويدرك شاعرنا أن كل سنة يزيدها تجعله ضعيفًا عاجزًا، حيث ذهبت قوته ووهنت عظامه، وقلت حركته، فيتضرع إلى الله ويندم ويقول في ذلك: **(الطويل)**

ألا إنها سِن تَزيـدُ فَأنقُـصُ — وَنفضَةُ حُمى تَعْتريِني فَأرقُـصُ
فَها أنا أمحُو ما جَنَيتُ بعَبرَتي — وأنظرُ في مَا قد عَمِلت أُمحـصُ
وألمَحُ أَعقابَ الأمُورِ فأرعَوي — ويُعمى علي الأمرُ طَورًا فأفحَص
ويا رُب ذيلٍ للشبـابِ سَحَبتُهُ — وما كنـتُ أدري أنهُ سيُقَلـصُ (٦٢)

فيحاول أن يزيل ذنوبه بكثرة دموعه وشدة تندمه، ويقوم بالأعمال الصالحة لتكون مكفرة له عن سوء أعماله السابقة، فهو سيحاسب في النهاية على عمله، ولن تنفعه أيام الغفلة والطيش لأن العمر قصير والأجل قريب، فيقول: **(الكامل)**

طُوبى لِعبدٍ قَامَ خِشيَـةَ رَبـه — والليلُ قد ضَرَب الظلامَ رِوَاقَا
خَضِلِ المَدامعِ خوفَ عَرضةِ مَالكٍ — خَضَع المُلوكُ لهُ بِهـا أَعنَاقَا
والنـاسُ من كابٍ هُناكَ وَسَابِـقٍ — قَدْ ألزمُوا أعمَالـهُمْ أَطْواقَا
فَحَنانَك اللهُمَّ في عبـدٍ غَـوَى — زَمَنًا فَشَد إلى الفُسوقِ نِطَاقَا
قَلقِ المَضَاجِعِ بَاتَ يَقرعُ سِنـهُ — نَدَما وَيُرْسِل دَمْعهُ إشفـاقا
سَحَبَ الشبِيبَة في الغوَايةِ ضِلـةً — حَتـى تَسَرْبَـلَ ثوْبَها أخلاقَا
فَلئـن سَطـوتَ بِه فَلا ظلْمًا لـهُ — وَلَئِـن صَنعت لهُ فَلا استِحقاقَا (٦٣)

ففي هذه المقطوعة تتزاحم المشاعر الجياشة لابن خفاجة حيث يعبر فيها عن خشيته من الله وقيامه في الليل للصلاة والدعاء خوفًا وطمعًا، يرجو الله أن يتقبل صالح عمله وأن يتجاوز عن سيئاته التي أوصلته إلى الفسوق، فهو لا يستطيع أن يغفل أو ينام بسبب تقريعه لنفسه عما فعله، وهنا يرد المشيئة إلى الله عز وعلا إن شاء عذبه بما يستحقه من ذنوب وإن شاء عفا عنه رحمة منه، ويتناص هذا المعنى مع قوله تعالى (إن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ

أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)[٦٤]، فلقد وردت هذه الآية الكريمة على لسان سيدنا عيسى عليه السلام حين ادعى قومه عليه أنه وأمه إلهان، وهنا رد سيدنا عيسى عليه السلام المشيئة لله في تعذيب قومه على هذا الادعاء الكاذب أو غفران هذا الذنب لهم.

ويصل به الأمر إلى المبالغة أحيانا في مشاعره، حين يتمنى أن لم يكن من المكلفين الذين يحاسبون على أفعالهم في الدنيا، ولا يدري ما الصواب من الخطأ، فهو لا يرى أن حسناته تكفي لكي تمحص سيئاته،

فيقول في ذلك: **(الطويل)**

فيَا لَيتَ أنَّـــي مَا خُلقتُ لمَطعمٍ ولـم أدرِ ما اليُسرَى هناك وما العُسرَى

ولستُ أرانـــي، والمَغَبةُ خِسةُ يَفـــي غَســـليَ اليُمنى لغَسليَ باليُسرَى[٦٥]

ولكنه لا يكتفي بلوم نفسه على ما قدمت يداه في فترة الشباب بل يتجاوز ذلك إلى النصح حين يوجه خطاب الناس للزهد في الدنيا وعدم التعلق بالمتاع الزائل، ويقول في ذلك : **(المتقارب)**

ألا قَصرُ كل بَقاءٍ ذَهـاب وعُمـرانُ كل حَيـاةٍ خَرابْ

وكلٌ يُدانُ بما كـــانَ دانَ فثَم الجـزاءُ وثَم الحِسابْ[٦٦]

فكل ما يصنعه الإنسان من قصور ولهو ومباهج سيزول حتما مع مرور الزمن، فلا تكلف نفسك أيها الإنسان العناء في بناء ما سيضيع، واعتبر، لأنك ستحاسب على ما اقترفته يداك وتجازى عليه، فيحذر ابن خفاجة من ارتكاب الذنوب لأن هناك كتابًا يُكتب فيه كل ما تفعل.

٢-٢ثنائية الخوف والرجاء

إن الخوف والرجاء نزعة إنسانية بالفطرة، فالإنسان سيحاسب يوم القيامة ويتحدد مصيره، إما بدخول الجنة والراحة الأبدية أو بدخول النار وتلقي العذاب الإلهي، وبين هذا وذاك يتأمل الزاهد في الدنيا حاله، فيملأ الخوف قلبه وتسيل دموعه من العذاب وهول الحساب يبحث عن الملاذ الآمن فلا يجد إلا الله فيلتمس منه الرحمة والمغفرة على ما اقترفته يداه، فـ " الرجاء والخوف جناحان، بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود، ومطيتان بهما يقطع من طريق الآخرة

على عقبة كؤود" [٦٧]، وتتسق هذه الكلمات مع حديث النبي ﷺ حين دخل على شاب يحتضر فقال له " كيف تجدك؟ قال: والله يا رسول الله إني أرجو الله وإني أخاف ذنوبي. فقال رسول الله – ﷺ – لا يجتمعان في قلب عبدٍ في مثل هذا الموطن، إلا أعطاه الله ما يرجو، وآمنه مما يخاف" [٦٨]، وشعر الزهد لابن خفاجة يصور هذا الجانب من حياته والتي تتصارع فيها المشاعر وتتضارب بين الخوف والرجاء، فيقول في ذلك : **(الكامل)**

لا والـــذي أعلَقتُ مِن تَقدِيسه كَفـــى بحبَلَىْ عِصمةٍ ورجَاءِ

وخَرَرتُ بَيـــــنَ يَدَيهِ أعلَمُ أنه ذُخري ليَـومَي شِـدةٍ ورخاءِ [٦٩]

فخوف شاعرنا شديد على ما فرط ولكنه يعتصم بالله متضرعًا ساجدًا أن يعفو عنه يوم القيامة، وهذه المشاعر تتماشى مع ما ذكره القشيري حين قال " من خاف من شيء هرب منه ومن خاف من الله هرب إليه" [٧٠]، ويقدم ابن خفاجة في شعره دعوة لصلاح النفس في قوله: **(متقارب)**

فلا تُجــرِ كَفَّك مـــن مُهرَقٍ بما لا يَســـر هناك الكِتابْ

فَإنـــك يَومـا مُجـازَى بـــهِ وإن يَـدا كَتَبتـــهُ ترابْ

ولا خِطـــةٌ غيـرَ إحدى اثنَتَينِ إما نَعيـــمٌ وإمـا عَـذابْ[٧١]

وهو هنا يعظ الناس ويدعوهم لضرورة التزود بالأعمال الصالحة قبل الرحيل عن هذه الدار الفانية، فهو يقدم النصيحة ويُصحب تلك النصيحة بوسيلة إقناع من خلال الثنائية الضدية (نعيم / عذاب) حيث النجاة فقط لمن أصلح وعَمِلَ عملا صالحا.

لذا لا يتبقى له إلا الدعاء حتى يطمئن قلبه ويستريح، فيدعو الله قائلا: **(الطويل)**

فَرُحمَاك يا مولاي دَعـوةَ ضَارعٍ يَمُـد إلى نُعماكَ راحَةَ راغِبِ [٧٢]

فيطلب الرحمة ويستعطف الخالق/الملك سبحانه وتعالى أملًا في النجاة من يوم الحساب المرير الذي ينتظر البشر وطمعًا في الجنة ونعيمها، فيقول: **(المتقارب)**

فرُحماكَ يا مَـن علَيهِ الحِساب وزُلفـاكَ يـا مَن إلَيـهِ المَآب [٧٣]

وينبثق من إيمانه الراسخ برحمة الله وعدله أن ينصح الناس بترك الدنيا وما فيها من متاع زائل والتعلق بالله لأنه الكريم الرحيم.

ولقد قال رسول الله ﷺ " سددوا وقاربوا وأبشروا، فإنه لن يدخل أحدا الجنة عمله. قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال " ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه برحمته"(٧٤)، وفي ذلك يقول ابن خفاجة: **(الطويل)**

تَيَقــنَ أن اللهَ أكــرَمُ جِيــرَةٍ فــأزمَعَ عن دارِ الحَياةِ رَحيلا
فإنْ أقفَرَتْ منهُ العُيــونُ فإنــهُ تَعَــوضَ عَنــها بالقُلوبِ بَديلا
ولــم أرَ أُنسًا قَبلَهُ عادَ وَحشَةً وبَردًا على الأكبادِ عــادَ غَليلا (٧٥)

فالله تعالى هو أكرم جار تلجأ إليه أيها الإنسان، فابتعد عن الدنيا لأنك راحل عنها، وإن لم تر العيون الله فالقلوب تراه وتشعر به وتأنس بقربه ويزداد الإنسان بالله يقينًا وإيمانًا.

٣-٢الزهد في الدنيا:

يقوم الزهد في الدنيا على مرتكزين أساسيين، أولهما أن الدنيا هي رحلة قصيرة ما تلبث أن تنتهي دون أن يدرك الإنسان فيها مطلبه، وثانيهما أن الآخرة هي الأبقى والمستقر سواء أكانت جنة ونعيمًا أم عذابًا وشقاء، فالبشر عندما " يفقدون الثقة في الحياة والأحياء، يأتي الدين بما فيه من نصوص وتعاليم تهون من شأن الدنيا وتُزَهِد فيها، فيجذبهم إلى هذا الجانب فيه والذي يصادف هوى في نفوسهم التي ضاقت بهذه الدنيا، فتأتي الخطوة الأولى بالزهد في الدنيا، وما يسيطر عليها من مادية وشهوات"(٧٦)، فعبر شعر ابن خفاجة عن هذا المضمون، فيقول: **(السريع)**

أيُّ زمانٍ جادَ إلا نَهَــبْ أمْ أي خَطبٍ جارَ إلا ذَهَبْ
كُلًّا طَوَى الدهرُ فلا ما وَهَى بجانِبٍ دامَ ولا مَــا وَهبْ
فَما لعَقلٍ وافِرٍ والمُنــى وما لنَفــسٍ حرة والذَّهبْ(٧٧)

فالشاعر هنا واع للزمن الذي لايعطي دون مقابل، فهو يعطي ويهب شيئًا ولكنه يأخذ أشياءً كثيرة في مقابلها، وحتى ما يعطيه فهو لا يدوم ولا يستمر، فعلى كل عاقل أن يدرك أن

الحياة قصيرة وأن الأماني لا تغر الإنسان العاقل المفكر، كما أن الحر لا يستهويه بريق الذهب، الذي هو كناية عن المال والنعيم والغنى، ويعدد ابن خفاجة أساليب النفي ليؤكد على زيف الدنيا وزخرفها الباطل.

ويؤكد على هذه الركيزة مرة أخرى حين يقول: **(الخفيف)**

لا العَطايا، ولا الرّزايا بَواقٍ ... كلُ شيءٍ إلى بِلى ودُثُور

فالهُ عن حالَتَي سرورٍ وحُزنٍ ... فإلى غايةٍ مَجاري الأمُورِ

وإذا ما انقَضَتْ صرُوف الليالي، ... فسَواءٌ ليلُ الأسَى والسرورِ[٧٨]

فكل ما يفعله الإنسان في هذه الدنيا سوف يفنى، وكل ما شعر به من السعادة أو الحزن في الدنيا سوف ينتهي، لأنه سوف يبدأ رحلة أخرى، فيتعجب ابن خفاجة من تعلقه بالحياة وبالآمال، على الرغم من مناداته بأقصى ما يملك من علو الصوت لمن هم في القبور ولكنهم في النهاية لا يسمعون صريخه ولا يجيبوه ولا يجد إلا صمت القبور، فيقول في ذلك: **(الطويل)**

ألا صُمتِ الأجداثُ عني فلم تُجِبْ ... ولم يُغنني أني رَفَعتُ لها صوتي

فيا عَجَبًا لي! كيفَ آنسُ بالمُنى ... وغايةُ ما أدركتُ منها إلى الفَوتِ

وهل من سُرورٍ أو أمانٍ لعاقِلٍ ... ومَفضَى عُبُورِ العابرينَ إلى المَوتِ[٧٩]

وصف الشاعر في الأبيات السابقة حاله وحال الناس من حيث الغفلة والاستئناس بالدنيا وترك الاستعداد إلى الرحيل، فهو يستخدم أسلوب التعجب (يا عجبا لي) لكي يلوم نفسه على غفلته وتعلقه بالدنيا ويتناسى أنه لا طريق آخر والرحلة سوف تنتهي في يوم ما وسيصل الإنسان إلى الموت، فكما قال الله تعالى في محكم تنزيله {وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ}[٨٠]، فالدنيا إذن قليلة القيمة هينة الشأن، لا تستحق أن يسعى خلفها الإنسان، لذا فإن الإنسان العاقل يزهد فيها ليتقي شرها وليكسب بها الآخرة، وفي ذلك يقول ابن خفاجة: **(الطويل)**

وهلْ مُهجةُ الإنسانِ إلا طَريدَةٌ ... تَحُومُ عَلَيها للحِمامِ عُقابُ

يَخُب بها في كل يومٍ ولَيلَةٍ ... مَطايا إلى دارِ البِلى ورِكابُ

وكيفَ يَغِيضُ الدمعُ أو يَبرُدُ الحَشا ... وقد بادَ أقرانٌ وفاتَ شبابُ[٨١]

وهنا شبه شاعرنا روح الإنسان بالفريسة التي يحوم حولها الموت الذي لا مفر منه من خلال الطائر المفترس (العُقاب)، ففي كل وقت صباحًا ومساءً يغادر الناس إلى دار البقاء ويتركون الحياة، وهنا يأتي التساؤل المؤلم عن وقت توقف البكاء والشعور بالراحة وقد توفى الأصحاب وكبر في السن وبدت شيخوخته، فأصحابه الآن: **(الطويل)**

هُجُودٌ ولا غيرَ الترابِ حَشيــةٌ لِجَنبٍ ولا غَيـرَ القُبُورِ قِبـابُ (٨٢)

فأصحابه الآن الموتى في مرحلة النوم الأبدي، ويفترشون التراب في قبورهم حتى يأتي يوم القيامة.

ويفضي شاعرنا إلينا بمشاعره تجاه الموت، فيقول: **(الكامل)**

وَكَفَى اكتئابا أن تَعيثَ يَدُ البِلَــى في محـو تلك الصورَةِ الحسناءِ(٨٣)

فهو يشعر بالاكتئاب الشديد بما يفعله الموت من تغيير في جسد الإنسان، وضياع لمحاسنه الجسدية، ولكنه يتذكر حكمة الله في جعل الإنسان ترابًا كسيرته الأولى، فيقول: **(الطويل)**

كَفَى حكمَـةً للهِ أنــكَ صَائِــرٌ تُرابًا كما سَوَّاكَ قَبـلُ فعَــدَّلَك

وإنْ شِئتَ مَرأى كيفَ كَوَّنَ ثانيًا فدونَك فانُظـر كيـفَ كَوَّنَ أوَّلـك

فهَل أنتَ في دارِ الفَناءِ مُمَهَّــد مَحَلــكَ في دارِ البقــاءِ ومنزلُكْ(٨٤)

وهنا يتناص ابن خفاجة مع النص القرآني قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ(٧) }(٨٥)، وكذلك مع قوله تعالى {مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ}(٨٦)، فهنا ارتكز شاعرنا على هاتين الآيتين الكريمتين من خلال ألفاظ (سواك – عدلك) كما ارتكز على المعنى حيث يشير إلى أن الإنسان سيعود ترابًا كما خلقه الله أول مرة، ثم يثير ذهن المتلقي بتساؤل حول إعداد النفس في الدنيا (دار الفناء) لكي تستقر في (دار البقاء) ويقصد بها الآخرة.

خاتمة

- حاولت الدراسة أن تسهم في إبراز تجربة ابن خفاجة الزهدية، من خلال الوقوف على بواعث زهده ومظاهره التي تناولها، ولاحظت الدراسة أن شعر ابن خفاجة الزهدي كان في معظمه مقطوعات، مكثفة المعنى واضحة الفكرة.
- تعددت البواعث لشعره الزهدي من مرور الزمن وضياع فترة الشباب وبداية الشيب وبلوغ المشيب، وكان من بواعثه أيضًا تذكره الدائم لأصحابه الذين يرقدون في القبور، فيصف أحوالهم هناك ويتوجع على فقدهم ويتساءل عن موعد لقائه معهم، وكانت معاناته من الوحدة له باعثًا قويًا على الزهد، حيث تركت تأثيرًا نفسيًا قويًا عليه أبدع بسببها قصيدة الجبل المتميزة في الشعر العربي كله.
- عبرت موضوعاته الزهدية عن مدى انشغاله بقضاياه الذاتية الكبرى مثل التوبة من الذنوب، كما كشفت عن خوفه من الله ورجاء الرحمة والرضا بالقضاء، وكان مظهر زهده في الدنيا من الموضوعات التي تناولها في شعره الزهدي.
- حاول ابن خفاجة من خلال شعره أن ينصح الناس ويعظهم بترك الدنيا والزهد فيها والترغيب في الآخرة، كما جاءت دعوته لمجاهدة النفس والسيطرة عليها من خلال وسائل إقناع عديدة.
- كان ابن خفاجة شاعر الطبيعة الأول لذا شكلت عناصر الطبيعة جزءًا كبيرًا من تجربته الزهدية، فاستطاع بعد أن أعاد تشكيلها تبعًا لغرضه الشعري أن يبتكر صورًا فنية جديدة، كما أظهرت تناصاته المتعددة مع القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والشعر القديم اتساع ثقافته الدينية والأدبية.
- استطاع ابن خفاجة أن ينقل لنا تجربته الزهدية من خلال الصدق الفني وروعة التصوير، فخلق حالة من التأثيرات الروحية على المتلقي، فتفاعل معاها وآمن بها.

الهوامش

(١) عز الدين إسماعيل: الشعر العباسي الرؤية والفن، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٥م، ص٧٧.

(٢) عبد الستار السيد متولي: أدب الزهد في العصر العباسي، رسالة دكتوراة، جامعة أم القرى، مكة، ١٩٧٢، ص١٤.

(٣) نجيب عطوي: شعر الزهد في القرنين الثاني والثالث للهجرة، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨١م، ص٣٠.

(٤) ابن قدامة المقدسي: مختصر منهاج القاصدين، تحقيق سعد العارف، دار إحياء العلوم، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٩٧م، ص٣٧٢.

(٥) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، تحقيق إحسان عباس وآخرين، دار صادر، الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠٠٢، ٥٦/٤.

(٦) أحمد هيكل: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، دار المعارف، الطبعة التاسعة، ١٩٨٥م، ص١٣٠.

(٧) كامل الكيلاني: نظرات في تاريخ الأدب الأندلسي، المكتبة التجارية، الطبعة الأولى، ١٩٢٤م، ص ١٠٧.

(٨) منجد مصطفى بهجت: الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي في عهدي ملوك الطوائف والمرابطين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٦٨م، ص١٤٨.

(٩) نفسه، ص٥٥.

(١٠) عبد العزيز عتيق: الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة العربية، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٧٦، ص ٢٥٨.

(١١) الضبي: بغية الملتمس، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٧م، ص٢١٧.

(١٢) ابن خفاجة: ديوان ابن خفاجة، تحقيق الدكتور السيد مصطفى غازي، منشأة دار المعارف، الإسكندرية، ١٩٦٠، مقدمة المحقق ص١،٢.

(١٣)ابن خفاجة: الديوان، تحقيق عبد الله سنده، دار المعرفة، الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠٠٦م، ص١٣٣.

(١٤) ابن بسام: الذخيرة، ٥٤٢/٦.

(١٥) السيد أحمد عمارة: شعر بني أمية في الأندلس حتى نهاية القرن الخامس الهجري، مكتبة المتنبي، الطبعة الثانية، ٢٠٠١م، ص١٤٩.

(١٦) ابن بسام: الذخيرة، ٥٤١/٦-٥٤٢.

(١٧) إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، دار الشروق، الطبعة الأولى، عمان، ١٩٩٧م، ص ١٦٣.

(١٨) ابن خفاجة: الديوان، ص٨٥.

(١٩) أشرف دعدور: بحوث ومقالات في الشعر الأندلسي، دار الثقافة العربية، القاهرة، ص٤٢.

(٢٠) مصطفى الشكعة: الأدب الأندلسي، ص٣٤٩.

(٢١) الإبشيهي: المستطرف من كل فن مستظرف، إشراف المكتب العلمي للبحوث، دار الحياة، بيروت، ١٩٩٤م،٦/٢.

(٢٢) محمد مجيد السعيد: الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس، ص ٢٦٧.

(٢٣) ابن خفاجة: ديوان ابن خفاجة، تحقيق غازي، ص٧.

(٢٤) ابن خفاجة: الديوان، ص٦٥.

(٢٥) نفسه، ص١٤١.

(٢٦) سورة يس، الآية ٣٧.

(٢٧) ابن خفاجة: ديوان ابن خفاجة، تحقيق غازي ، ص٦.

(٢٨) ابن خفاجة: الديوان، ص١٨٦.

(٢٩) نفسه، ص١٣٨.

(٣٠) ابن خفاجة: الديوان، ص١٣٩.

(٣١) نفسه، ص١٨٦– ١٨٧.

(٣٢) ابن خفاجة: الديوان، تحقيق غازي، ص ٦٤–٦٥.

(٣٣) ابن خفاجة: الديوان، ص ٦٥.

(٣٤) نفسه، ص٣٢١ – ٣٢٢.

(٣٥) الضبي: بغية الملتمس، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٧م، ص٢١٧.

(٣٦) ابن خفاجة: الديوان، تحقيق غازي، ص ٦٣–٦٤.

(٣٧) نفسه، ص ١٧٨.

(٣٨) ابن خفاجة: الديوان، ص٦٣–٦٤.

(٣٩) ابن خفاجة: الديوان، ص٦٤.

(٤٠) نفسه، ص ١٠٤ .

(٤١) سورة فاطر، الآية ٢٢.

(٤٢) ابن خفاجة: الديوان، ص ١٠٥.

(٤٣) نفسه، ص٦٠. ومن المفيد الإشارة إلى أن هذا البيت غير موجود في الديوان تحقيق غازي.

(٤٤) ابن خفاجة: الديوان، تحقيق غازي، ص ١٧٧ –١٧٨.

(٤٥) ابن خفاجة: الديوان، ص ١٩.

(٤٦) نفسه، ص ٦١.

(٤٧) أبو فراس الحمداني: الديوان، تحقيق خليل الدويهي، دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٩٤م، ص ٤٨.

(٤٨) ابن خفاجة: الديوان، ص ٤٥.

(٤٩) ابن خفاجة: الديوان، ص ٤٩.

(٥٠) نفسه، ص ٦٢.

(٥١) نفسه، ص ٢٢٥.

(٥٢) ابن خفاجة: الديوان، تحقيق غازي، ص ٦٨.

(٥٣) نفسه، ص٤٧.

(٥٤) ابن خفاجة: الديوان، ص٤٨.

(٥٥) ابن خفاجة: الديوان، ص٤٨-٤٩.

(٥٦) نفسه، ص٤٩.

(٥٧) نفسه، ص٤٩.

(٥٨) ابن خفاجة: الديوان، ص ٤٦.

(٥٩) نفسه، ص ١٨٦-١٨٧.

(٦٠) ابن خفاجة: الديوان، ص ١٤١.

(٦١) نفسه، ص ٢٨٣-٢٨٤.

(٦٢)ابن خفاجة: الديوان، ص ١٨٤-١٨٥.

(٦٣) ابن خفاجة: الديوان، تحقيق غازي، ص ٢١٤. ، ومن المفيد ذكر أن هذه المقطوعة غير موجودة في نسخة عبد الله سنده، ونسخة الدكتور عمر فاروق الطباع، دار القلم، بيروت، ١٩٩٤م.

(٦٤) سورة المائدة، آية ١١٨.

(٦٥) ابن خفاجة: الديوان، ص١٤١.

(٦٦) نفسه، ص ٥٠.

(٦٧) ابن قدامة المقدسي: منهاج القاصدين، ص٣٥٠.

(٦٨) الترمذي: الجامع الصحيح، تحقيق مُحَمَّد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٣١١/٣.

(٦٩) ابن خفاجة: الديوان، ص ١٩.

(٧٠) القشيري: الرسالة القشيرية، مؤسسة الكتب الثقافية، الطبعة الاولى، بيروت، ص ١٢٦.

(٧١) ابن خفاجة: الديوان، ص ٥٠.

(٧٢) نفسه، ص ٤٩.

(٧٣) نفسه، ص ٥٦.

(٧٤) الإمام مسلم: صحيح مسلم بشرح النووي، مؤسسة قرطبة، الطبعة الثانية، ١٩٩٤م، ١٤١/٨.

(٧٥) ابن خفاجة: الديوان، ص ٢٥٢.

(٧٦) أشرف دعدور: الغربة في الشعر الأندلسي عقب سقوط الخلافة، زهراء الشرق، القاهرة، ١٩٩٦م، ص١٧٣.

(٧٧) ابن خفاجة: الديوان، ص٣٥.

(٧٨) ابن خفاجة: الديوان، ص١٤٠-١٤١.

(٧٩) نفسه، ص٧٠.

(٨٠) سورة الأعلى، الآية ١٧.

(٨١) ابن خفاجة: الديوان، ص٦١.

(٨٢) نفسه، ص٦٢.

(٨٣) نفسه، ص٢٠.

(٨٤) نفسه، ٢٤٩.

(٨٥) سورة الانفطار، الآية ٦-٧.

(٨٦) سورة طه، الآية ٥٥.

المراجع

- القرآن الكريم
- ابن خفاجة: ديوان ابن خفاجة، تحقيق الدكتور السيد مصطفى غازي، منشأة دار المعارف، الإسكندرية، ١٩٦٠.
- ـــ: ديوان ابن خفاجة، تحقيق عبد الله سنده، دار المعرفة، الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠٠٦م.
- ـــ: ديوان ابن خفاجة، عمر فاروق الطباع، دار القلم، بيروت، ١٩٩٤م.
- آنخل جنثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الأولى، ١٩٥٥م.
- أحمد هيكل: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، دار المعارف، الطبعة التاسعة، ١٩٨٥م.
- أشرف دعدور: بحوث ومقالات في الشعر الأندلسي، دار الثقافة العربية، القاهرة، د.ت.
- ـــ: الغربة في الشعر الأندلسي عقب سقوط الخلافة، زهراء الشرق، القاهرة، ١٩٩٦م.
- الإبشيهي: المستطرف من كل فن مستظرف، إشراف المكتب العلمي للبحوث، دار الحياة، بيروت، ١٩٩٤م.
- إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، دار الثقافة، الطبعة السابعة، بيروت، ١٩٨٥م.
- ـــ: تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، دار الشروق، الطبعة الأولى، عمان، ١٩٩٧م.
- ابن بسام الشنتريني: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٩٧م.
- بومدين كروم: الطبيعة في شعر ابن خفاجة الأندلسي، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة دمشق، سوريا، ١٩٨٣م.

- الترمذي: الجامع الصحيح، تحقيق مُحَمَّد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- حسام أحمد فرج: نظرية علم النص، مكتبة الآداب، الطبعة الثالثة، القاهرة، ٢٠١٨م.
- راشد عيسى ونضال الشمالي: خطاب الموت في شعر ابن خفاجة الأندلسي قصيدة الجبل، مجلة جامعة النجاح للأبحاث، مجلد ٢٥، ٢٠١١.
- رينولد نيكولسون: في التصوف الإسلامي وتاريخه، مجموعة أبحاث عنوانها النترجم الدكتور أبو العلا عفيفي، القاهرة، ١٩٤٧.
- زينب بوصبيعة: شعر الزهد في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، عدد ٢٢، ٢٠٠٦م.
- سالم عبد الرزاق سليمان المصري: شعر التصوف في الأندلس، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية.
- السيد أحمد عمارة: شعر بني أمية في الأندلس حتى نهاية القرن الخامس الهجري، مكتبة المتنبي، الطبعة الثانية، ٢٠٠١م.
- الشريف الجرجاني: التعريفات، تحقيق الدكتور مُحَمَّد عبد الرحمن المرعشلي، دار النفائس، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م.
- شوقي ضيف: عصر الدول والإمارات (الأندلس)، دار المعارف، ١٩٨٩م.
- الضبي: بغية الملتمس، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٧م.
- عبد الستار السيد متولي: أدب الزهد في العصر العباسي، رسالة دكتوراة، جامعة أم القرى، مكة، ١٩٧٢.
- عبد العزيز عتيق: الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة العربية، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٧٦.
- عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق الدكتور مُحَمَّد زينهم، دار الفرجاني للنشر، القاهرة، ١٩٩٤م.

- عز الدين إسماعيل: الشعر العباسي الرؤية والفن، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٥.
- أبو فراس الحمداني: الديوان، تحقيق خليل الدويهي، دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٩٤م.
- أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، تحقيق إحسان عباس وآخرين، دار صادر، الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠٠٢.
- فوزي عيسى: الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، دار الوفاء، الطبعة الأولى، الإسكندرية، ٢٠٠٧م.
- ابن قدامة المقدسي: مختصر منهاج القاصدين، تحقيق سعد العارف، دار إحياء العلوم، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٩٧م.
- القشيري: الرسالة القشيرية، مؤسسة الكتب الثقافية، الطبعة الاولى، بيروت.
- كامل الكيلاني: نظرات في تاريخ الأدب الأندلسي، المكتبة التجارية، الطبعة الأولى، ١٩٢٤م.
- مُحَمَّد بركات البيلي: الزهاد والمتصوفة في بلاد المغرب والأندلس حتى القرن الخامس الهجري، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٣م.
- مُحَمَّد العبد: اللغة والإبداع الأدبي، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، الطبعة الثانية، القاهرة، ٢٠١٤م.
- مُحَمَّد عبد الباسط: بلاغة الخطاب قراءة في شعرية المديح، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ٢٠١٥م.
- مُحَمَّد عويس: من قضايا الإنسان في الشعر الأندلسي، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٨٦م.
- الإمام مسلم: صحيح مسلم بشرح النووي، مؤسسة قرطبة، الطبعة الثانية، ١٩٩٤م.

- مصطفى الشكعة: الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، دار العلم للملايين، الطبعة الثالثة، بيروت، ١٩٧٥م.
- المقّري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م.
- منجد مصطفى بهجت: الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي في عهدي ملوك الطوائف والمرابطين، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٦م.
- نجيب عطوي: شعر الزهد في القرنين الثاني والثالث للهجرة، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨١م.
- هيام يوسف المجدلاوي :الزهد في الشعر الأندلسي في القرنين الرابع والخامس الهجريين، ماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأزهر، غزة، ٢٠١٠م.